ظاهرة "الممارسة الغْرافِيتيّة" وإشكالية المقاربات المنهجية

محاولة ترصّد أبرز المقاربات المعتمدة

باي بوعلام

أستاذ محاضر، علم الاجتماع، جامعة تلمسان.

- **تمهيد:**

سنحاول ضمن مقالنا الموالي[1] تَرَصّد أبرز المقاربات الميتودولوجية التي إبتدعها وإستَنْبَأَهَا الدّارسون لأجل إستنطاق المنتوج(ات) الغرافيتي(ة) Le(s) produit graffitique، واستجلاء أبرز مستوياته المُضْمَرَة، ومعانيه الممكنة، سواء داخل الفضاءات المغلقة، أو على واجهات نظيراتها المفتوحة. مما جعلها– أي الغرافيتيا– موضوع سِجال واهتمام عِدّة تخصصات علمية، خاصةً، تاريخ الفن، الأركيولوجيا، الأنثروبولوجيا، علم الفلكلور، علم اللّسانيات، علم الإجرام، علم النفس، التّحليل النّفسي، علم الإعلام والاتصال، وعلم الاجتماع بمختلف تخصصاته، الحضري، الثقافي، التربوي، الفنّي، البصري...، لأسباب شتّى كما يعتقد الباحث المحنّك"شيبال دين Scheibel Dean"[2].

لكن، حَريّ بنا قبل الإندلاق في تفاصيل الموضوع أن نعرّج على أهم تعريفات مفهوم "الغرافيتي Graffiti (s)"، فما المقصود بالغرافيتي / الغرافيتيا؟ وما أبرز اشتقاقاته الدلالية؟.

I. **حول معاني "الغرافيتي Graffiti":**

إتيمولوجياً، مفردة "غرافيتي Graffiti" في بنيتها ودلالتها اللّغوية المعاصرة إيطالية الأصل والفصل، أُشتُقَّت من فعل "Graffiare"، ويعنى (يَخدُش ويَكشُط). أُلحِقت بسوق التّداول المعجمي والمصطلحي لأوّل مرة في القواميس الإنجليزية بداية1851. ليَنفَرِضَ المصطلح في القواميس الفرنسية بمفردة "Graffito" سنة 1886، وقبلها كلمة "Graffite" سنة 1878 [3]. ذكرت عنها قواميس التَّجذِير وتعليل أصل الكلمات والألفاظ أنّها ذات أصول لاتينية ويونانية في البداية، وإيطالية حيث إكتسبت دلالاتها النّهائية المعاصرة.

مع مرور الوقت عرفت تعرّجات دلالية متعددّة، على مستوى المعنى والاشتقاق [4]، بعدما كانت تدل على تلك "النّقوش العتيقة Les inscriptions antiques" التي خلّفها الإنسان الأوّل على جَنَبات الكهوف والمغارات والصّخور،...إلخ.

بكثير من التَّأثِيل المفصّل، يُسَوَّق المفهوم في لغات العالم بِبُنَى ومَعاني متعدّدة، لكنها متقاطعة في دلالة مشتركة. ففي اللّغة الإغريقية نجد كلمة "Grapheim" تعني "يكتب، يرسم وبعض المرّات يُلَوِّن". أمّا في اللّغة اللاّتينية فأصل الكلمة يعود لمفردة "Graphium" وتعني: يُخَرْبِش، يَخْدُش، ويَكْشُط [5]. في حين نجدها في اللغة الإيطالية مشتقّة من مفردة "Sgraffito" وتعني "يَخدُش، ويُخربِش". تطور إشتقاقها إلى "Graffito"، مفرد كلمة "Graffiti". ومعناه "كَتَب وخَدَشَ أو خَمَّشَ أو حَكَّ سَطحاً"[6]. بشكل عام تُشير كلمة "غرافيتي Graffiti "في اللّغات الأوروبية إلى أيّ كتابة أو رسم أو خدشٍ،..." غُرْفَتَ "على الجدران، وما شاكلها من الدّعامات (Les supports)، غير المخصّصة لذلك، بإستخدام أدوات كتابة تقليدية أو معاصرة، كالفحم والأصباغ والرُذّاذ.

تباينت السِّجالات والمُناكفات حولها، إذ يُرقّيها ويُقدّسها البعض لدرجة العمل الفنّي القيّم، بينما يحتقرها ويُدَنِسُها البعض الآخر، ويُنزِلها لِدَرَكة الفعل التَّخريبي (Un acte de vandalisme) للممتلكات العامّة والخاصة. ففي قاموس- "Le Robert" مثلاً -تدل الغرافيتيا على: كلّ كتابة أو رسم مخطوط أو منقوش على الحيطان، وعلى جَنَبات آثار المدن. وفي معناها العام، كلّ كتابةٍ أو رسم زَكِيك على الجدران، والأبواب العمومية أو الخاصة، أو خَربَشات /شَخبَطات سَاقطة– وفاحشة Des gribouillages obscènes.

ونظرًا لِإنتشارها المَهول بالعديد من المجتمعات، وحضورها اليومي بمختلف التّضاريس المجتمعية، بداية من النّصف الثاني من القرن الماضي، وفعاليتها في التّعبئة الجماهيرية –المضادّة– (خلال أحداث ماي 1968)، إضافةً، لِإرتفاع تكاليف محاربتها بالنّسبة للسّلطات المحلية، وإنفراضِها كممارسة/ بل ظاهرة اجتماعية بِامتياز، فرضت ذاتها كموضوع بحثي مهم، شغلت العديد من الباحثين–رغم قلتهم،

بإختلاف نِحَلِهم ومواقفهم العلمية. لكن، واجهتهم جملة من العوائق المنهجية إضطرّتهم للإعتراف بجديّة وصعوبة مقاربتها. ولتجاوز هذه الاشكاليات عمدوا لصياغة و"تَبْنِيَةِ" عِدَّة مقاربات بحثية لتيسير الفهم والتّحليل[7] ، نحاول تلخصها فيما يأتي:

II. عَشر مقاربات لفهم الممارسة "الغْرافِيتيَّة":

سنعرّج اللّحظة على أبرز المقاربات التي إستثمرها دارسي "الغرافيتيا"، من آل السوسيولوجيا والانثروبولوجيا، وباقي العلوم الانسانية والاجتماعية، خاصة الأمريكيين منهم (حيث مَهد الممارسة بلونها المعاصر)، ومنه باقي الدّارسين الأوروبيين، ومن لحق بهم في المجتمعات التي عرفت إنتشار الظاهرة.

1. المقاربة الثّقافية/ الثّقافوية L'approche Culturaliste:

كثيرًا ما إستخدم آل الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا هكذا مقاربة في محاولات إستجلاء أَواليات إشتغال "الممارسة الغرافيتية"، بإعتبارها "ثقافة" عاكسةً ومعبّرة عن تَمَثّلات وتصورات جماعة اجتماعية معينة، أو جماعة إثنية محدّدة. حيث يتمّ إستثمار كامل المعطيات المُتاحَة، قصد تحليل كل كلمةٍ، جملة، شِعار، رمزٍ أو صورةٍ، بالتّركيز على طبيعة اللّغة المستعمَلَة، ونوع "الحامِل الغرافيتي graffitique Le support " المُستَثمَر، وخصوصية مضامين "الوحدات الغرافيتية Les unités graffitiques" المُنجَزَة، ورمزيّة "الرّسائل الغرافيتية Les messages graffitiques" المُرسلَة، ...إلخ قصد الكشف عن مميّزات الحياة اليومية المُعاشَة Le vécu quotidien لهذه الجماعة أو الجماعات، أو للمجتمع ككل، بإبراز خصائصهم الثّقافية، المتَميّزة، والمميّزَة لهم كمجموعة قائمة بذاتها. ومنه المساءلة حول مَلامح هوية هذا "الخطاب الغرافيتي Le discours graffitique". وبالتّالي تحديد المرجعيّات التي تَسِم الهوية الثّقافية، التّي يتبنّاها الفاعلون، سواء تعلق الأمر بـ: ثقافة الضِّد، ثقافة النُّخبة، الثّقافة الفِئوية، الثّقافة الجماهيرية،...أو غيرها من الأنماط الثقافية المُؤثِّثَة لثقافة المجتمع.

ويعتبر عالم الاجتماع والأنثروولوجيا "جون بوشنل Jean Bushnell"[8] من أشهر الباحثين الذين فَعَّلوا وطوّروا هذه المقاربة في حقل العلوم الاجتماعية عامة، وعلم الاجتماع خاصة، حيث رَكّز على "المادة الغرافيتية" لِتبيان ما هو مُهِم بالنّسبة لسكان العاصمة "موسكوMoscou"، مركّزًا على "الجماعات الشّبابية Les gangs "باعتبارها فضاءً لبروز العديد من "الفاعلين الغرافيتين acteurs Les graffitiques". مستخدماً في ذلك "الغرافيتي" كـ"بارومتر Un baromètre "لقياس آثَار التّغير الاجتماعي والثقافي على حياة الأفراد والجماعات، واستخلاص أهم السّمات الثّقافية المشتركة والمُميّزَة لها، ذلك لأنّها تعكس طبيعة المجتمع الذي أفرزها. وفي ذات السياق اجتهد السوسيولوجي الأمريكي "طوني كوهان Tony Cohan"(1975) [9] حينما قارب الظاهرة بِاعتبارها "تمثّلات اجتماعية Des représentations sociales" هامّة لِاستجلاء ملامح "الثّقافة الفرعية Subculture/sous- culture" الخاصة بممارسيها.

2. المقاربة النّوعية/ الجَندَرية L'approche du Genre :

يعتقد فَصيلٌ ثانٍ من الباحثين المُنهَّجِسِين بـ"الفعل/الممارسة الغرافيتية"، بإمكانية مقاربة هذه الأخيرة من خلال متغيّر "النّوع/ الجَندَر" – مفهوم سوسيولوجي يقصد به "العلاقات الاجتماعية بين الجنسين"، عملياً يقصد به تحليل المكانات والأدوار الاجتماعية والعلاقات بين الجنسين، بالتّركيز على التّباينات والتّراتبيات الاجتماعية والثقافية المشكلة–.

يَتِمّ مقاربة ممارسة الغرافيتي في فضاءات خاصة تُيَسِّر ذلك، على نحو "المراحيض"، التي تفصل فصلا فيزيقياً بين الأفراد، على أساس النّوع (ذكوراً، إناثاً)، إذ بإمكاننا ترصّد وتحليل وفهم "الأَثر الغرافيتي"، من خلال ما أُصطلح عليه بـ"غرافيتي المراحيض Restroom Bathroom/ graffiti" أو "لاترينالياLatrinalia" كما يسميها "ألان دنديز Alan Dundes [10]، بالتّركيز على مبدأ "النّوع" دون "حاملاتها"[11]. حيث تَمكّن كل من "جين كيلسو Jane Kelso" و"برونر إدوارد Bruner Edward" (1980) من إحصاء ثُلَّة من الدّراسات الكميّة حول الظاهرة، وإستخلصا بأنّ هناك إختلافات وتَباينات تَرتكز على مُتغيّر النّوع (الجَندَر)، ومنه، التّباين بين "الغرافيتيا الذّكورية" و"الغرافيتيا الأنثوية"[12].

كما إستنتج الباحث "أنج ليوندري Leandri Ange" بعض أوجه التّباين بين "الغرافيتيا النِّسائية" (الأنثوية) و"الغرافيتيا الرّجالية" (الذّكورية)، حيث تَتّصف الأُولى بمضمونها المُحتَشَم والعاطفي الحسَّاس، أمّا الثانية، فتميّزت بالفُحشِ والسَّماجَة والعُدوانية[13].

بدورها تُصنَّف دراسة "ألوي بريتان Britain Olowu" سنة 1983، ضمن هذه المقاربة، اِستجمع من خلالها عينات من "اللاّترِينياليا Latrinalia" من المراحيض الخاصة بالطلبة الجامعيين (ذكور)، المنتسبين لبعض الجامعات البريطانية، ومثيلاتها النّيجيرية، وقارن بينها، ليستنتج أنّ أكثر فئات "الغرافيتي" حضورًا بالمراحيض النّيجيرية، تلك التي تُعبّر عن الاعتقادات الخُرافية والرّوحانية. أمّا نظيراتها البريطانية فأغلبها تواجداً، فئة "غرافيتيا المِثلِيين Gay Graffiti" التي اِنعدمت في عيّنة المراحيض النّيجيرية[14].

بيد أنّ هكذا تحليل كثيرًا ما يَغفَل عن الأوجه الأخرى للظاهرة، خاصةً ّ الثّقافية منها، وطبيعة الدّعائم والحامِلات. كما سُجِّل عليها اِنتصارها المفرط لأوجه التّشابه بين "الكتابات الغرافيتية" على أساس النَّوع، بَدل تركيزها على أَوجه التَّباين والاختلاف.

3. المقارنة اللّسانية L'approche Linguistique:

يركّز أنصار هذه المقاربة على متغير "اللّغة" المستعملة في تجسيد "الرّسائل الغرافيتية Les messages graffitiques "، كأساس لتحليل الظّاهرة، حيث أُجريت العديد من الدراسات اللّسانية الأصيلة حولها، معتمدة على مرجعية نظرية تتعامل مع "النّص الغرافيتي Le texte graffitique" كغابة من الرّموز، لها دلالاتها وأبعادها وخصائصها اللّغوية، المتعدّدة والمتباينة، تُؤشّر على رغبة الفاعلين في محاولة "إعادة اِمتلاك رمزي Réappropriation symbolique" للفضاء الحضري، بكل تضاريسه، خاصة الفضاءات العامّة منها. مستثمرةً في ذلك "لغة خاصة" يجب الكشف عنها. لأنّ كلَّ "لغة" ليست سوى "منظومة كُليَّةً" لها خصائصها وعناصرها وبِنياتها ومستوياتها التَّراتُبية، يجب البحث عن دلالاتها ومقارنتها مع نظيراتها. بلغة الباحث "بيار برتونسكي Pierre Bertoncini" "إنّها اِمتلاك رمزي لفضاء معيّن (ضاق أو اِتّسع)، يكون قد فقده في مجتمعه"[15].

وفي ذات السّياق اِجتهد كل من "دافيد لاي David Ley" و"رومان سيبريويسكي Cybriwisky Roman " على مقاربة الظاهرة، لِيَخلصا إلى أنّ "الغرافيتيا" عبارة عن "مُحدّدات إقليمية" تفصل بين مناطق السّيطرة/ الهيمنة، الخاصة بكل "عِصابة" من "عصابات الغرافيتي Gangs graffiti"[16]. دعمت الفكرة الباحثة "سيلفيا غريدر Sylvia Grider"[17] بدراستها لـ"غرافيتيا المجموعات الشّبابية" بالأحياء الشّعبية الأمريكية، حيث خلصت إلى أنّ طبيعة وشكل اللّغة المستخدمة في الممارسة، هَجِينٌ من اللّغة الأمريكية والمكسيكية، أُستثمِرت لحماية رسائلهم الخاصة من "الآخر" (العصابات المنافسة وأجهزة الشرطة)، صفة جعلتها تُشابِه الى حدّ ما لغة الاشارة العسكرية التي تستخدمها المؤسسات الرّسمية.

بدورها تبقى هكذا مقاربة قاصرة بتركيزها على بعد واحد فقط في الظاهرة، متجاوزة أبعاد مجاورة خاصة البعد الثّقافي الهويّاتي.

4. المقاربة الفولكلورية L'approche Folklorique:

تعتمد هذه المقاربة على تجميع أكبر عدد ممكن من "الوحدات الغرافيتية Les unités graffitiques"، ليتم التّركيز فيها على السّمات والأبعاد الفلكلورية للممارسة، من خلال تحليل مضامينها، أو تحليلها من خلال المساحات المتعدّدة، المشغولة، والحُبلَى بـ"المنتوج الغرافيتي Le produit graffitique". حيث سافر "ألان ولكر ريد Allen Walker Read"[18] نهاية عشرينات القرن الماضي عبر العديد من المتنزّهات والحدائق العامّة بالولايات المتحدة الأمريكية، ليسجّل العديد من "الكتابات الفلكلورية"، التي جَثَت على مختلف "الحاملات"، كالجدران، الاشجار، المقاعد، الأبواب، النّوافذ، السلالم...إلخ. بتركيزه على تاريخ "الغرافيتي" وحامِله، حيث رَامَ فقط حِفظَ " المنتوجات الغرافيتية" للمستقبل. تعكس "الغرافيتيا" حسب هذه المقاربة خصائص الفنون الشّعبية لفاعليها، مما جعلها تتموقع كـ"فلكلور شعبي"، بل "فلكلور ثوريFolklore révolutionnaire" يعبّر عن تطلعات وآمال وأحلام المجتمعات، خاصة في الأوقات الحَرِجَة (الأزمات). طابعها "التَّجمِيعي" جعل بعض الدّارسين يأخذون على مصداقيتها العلمية في اِستوضاح عمق الممارسة الغرافيتية".

5. المقاربة الكمّية L'approche Quantitative :

تتميّز هكذا مقاربة ببعدها الكمي التَّصنِيفي، باستخدام التِّرسانة الإحصائية، حيث يَروم الدّارسون من ورائها تصنيف "المنتوج الغرافيتي" على أساس "كمية" النّوع، المحتوى، أو أيّ متغيّر يمكن تكميمه، وقياسه، لتيسير عملية التّمييز بين مضامينه الغرافيتية Les contenus graffitiques. حيث تَمكن كل من "ميكايل مارتن Michael Martin" و"جون باتس John A. Bates "[19] ، من اِستخلاص سِتَّ عَشرةَ فِئةً من الغرافيتيا المتباينة، التي غزت الحرم الجامعي بمدينة "ماساسوشيت Massachusetts"، وكان تقيمهما الإحصائي للمادة

المجموعة على أساس 'عَدَد الإجابات' بـ "نعم" أو "لا"، حول موضوع مُحدّد يُختار سَلفاً. ليخلصا أنّ الطالبات أكثر ممارسةً للغرافيتي من الطلاب –خاصة في المراحيض– حول ثِيماتٍ جِنسية وبورنوغرافية.

غير أنّ النّزعة المُفرِطة لتكميم Quantification "المنتوج الغرافيتي" بلغة الاحصائيات، دون البحث في سياقات مجاورة، خاصة النّوعية منها، يؤدي في الغالب إلى الاهتمام بما هو عام، مع اِحتمال طَمسِ ما هو خاص، نوعي وعميق.

6. المقاربة الفنيّة الجماليّة L'approche Esthétique :

تركّز هذه المقاربة على اِستجلاء الأبعاد الفنيّة والجماليّة للمنتوج الغرافيتي (ما يسمى بـ"الفن الغرافيتي Graffiti Art"، إذ تجتهد لإستظهار خصائصه الجماليّة والفنيّة، لتسليمها المسبق بوجود أوجه تشابه بين "الفن" (الرّسمي) و"الغرافيتي" (غير الرّسمي) [20]. حيث قام كل من"كيرك فارنيدوKirk Varnedoe" و"غوبنيك أدم Gopnik Adam" [21] بتفعيل مقارنات وموازنات هامّة بين "فن الغرافيتي" وباقي المنتجات الفنيّة المُرَسَّمَة (المُشَرعَنَة)، لفنانين معروفين.

غالباً ما تُدعِم مثل هذه الدّراسات تحليلاتها بصوّر 'راقيّة' من "الفن الغرافيتي"، يمكن مُجاراتها بفن "بيكاسو Picasso" و"ليوناردو Leonardo" و"موني Monet"[22]، كما يعتقد "جيورج ستوار George Stowers". حيث يفترض قائلا: لنفترض أنّ أحد هؤلاء الفنّانين، كان حيًا ونزل بجانب مَنزِلك لرسم تُحفَة فنيّة جميلة، فهل تمنعه؟. ربّما تَبايَنت رُدود الأفعال، لكني أزعم –الكلام لـ"جيورج ستوار George Stowers"– أنّ الأغلبية سَتُرحِب بذلك. كما يُموقِع بعض الباحثين المتأخرين مثل هذه الدّراسات في سياق حقل "سوسيولوجيا الفن Sociologie de l'art".

أجمعت العشرات من الدّراسات التي اِعتمدت بالدّرجة الأولى على هذه المقاربة على توصيف "الغرافيتي" بأوصاف عدّة، على نحو:

- ✓ الغرافيتيا عبارة عن "فن الشّوارع".
- ✓ "الفن الغاضب".
- ✓ "الفن المتمرّد/ المتشرّد" حسب "لانيبايل Lany Bayle".
- ✓ "الفن المُشاكِس".
- ✓ "فَن الرُّذَاذ Spray Art" (نِسبةً لغُلبة الرُّذَاذ التي يَسَّرَت اِنتشار الممارسة خلال نهاية السّبعينيات).
- ✓ "فَن الطبقات المحرومة والفَقيرة والمُهمَشَة". تتشارك كل هذه التّسميات في اعتبار الغرافيتي "فناً".

7. مقاربة الدّوافع L'approche Motivationnelle:

من جملة التّساؤلات التي تنطلق منها هذه المقاربة: لماذا يَلتَجِئ "الأفراد" للممارسة الغرافيتية؟، وما الدّوافع الثّاوِيَة وراء ذلك؟ وما الأسباب الفاعلة في حدوثها؟. وغيرها من الأسئلة المتشابكة التي تحاول الإجابة عنها، بالتّركيز على الدّافع/ الحافز الفردي للفاعل "المُغَرفِت Le Graffeur". فإستجلاء هكذا دوافع فردية، يُيسّر لنا اِستخلاص الدّوافع المشتركة بين الأفراد، ومنه الدّافع العام، الذي يمثّل نقطة تشارك "قيم ثقافية" بين الجماعة(ات)المُمارِسَة للغرافيتيا.

فالعديد من دارسي العلوم الاجتماعية، خاصة علم النفس وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا، اِستثمروها في دراساتهم لذات الغرض، على نحو "إرنست آبل Ernest Abel"، "باربارا باكلي Barbara Buckley"[23] و"ريجينا بلوم Regina Blume". هذه الأخيرة التي لخصت دوافع الإلتجاء للغرافيتيا، في فئتين رئيسيتين: الاتصال الجماهيري والانعكاسي /الاتصال الفردي والفئوي)، تتفرّع منهما ثَماني مجموعات فرعية [24].

بَيد أنّما يُؤخَذ على "مقاربة الدّوافع" إمكانية فتحها الباب على مصراعيه لذّاتية الباحث في تفسير وتّأويل خلفيات الممارسة الغرافيتية.

8. المقاربة الوقائية L'approche Préventive:

برزت وإزدهرت هذه المقاربة، بُعيدَ الإنتشار المَهُول والمكثَّف للغرافيتيا بالمجتمع الأمريكي، ثمّ باقي المجتمعات الأوروبية، وتزايد "تكاليف" محاربتها، وتحويلها لجنحَة يعاقب عليها القانون، نتيجة نداءات "رافضي الغرافيتيا"، خاصة من أهل الحَل والربط (المسؤولين

المحليين ورجال الأمن)، وبعض المواطنين الذين تضرّروا منها مباشرة (كلفتها التّنظيفية). حيث اعتبرت الممارسة "مرض اجتماعي خبيث" (سرطان) يُستوجَب الوقاية منه قبل اِستفحاله.

ويعتبر الباحث المُتمرّس "فرانك كوفِّيلدFrank Coffield"[25] من أشهر رواد هذا الاتجاه، حيث قدّم دليلا يقترح فيه أبرز الكيفيات الفعّالة للحدّ والوقاية منها –خاصة بالمجتمع البريطاني–، كتكثيف الحملات التّحسيسية بخطر الظاهرة، بتفعيلها في برامج التربية البيئية والمدنية، وتعميم حملات تنظيف الواجهات "المُغَرفَت" (المكتوب عليها) عليها، وتشديد العقوبات المادية والمعنوية،...)، وفق توصيات "جيمس ويلسون James Q. Wilson"و"جيورج كلينغ George L. Kelling " في مبادئ نظريتهما "النّافذة المكسورةLa Fenêtre Brisée/Broken Window"[26] لمحاربة السلوك الإجرامي، وفي ذات الوقت تطبيق فلسفة مبدأ "الوقاية خير من العلاج" بتوسيع العمل التّوعوي قبل الاصابة بالبلوى.

9. المقاربة الحَضَرية L'approche Urbaine:

غالباً ما تصنّف الدّراسات التي تعتمد على مثل هكذا مقاربة في سياق "السوسيولوجيا الحضرية Sociologie urbaine"، حيث تحاول تَفهّم العلاقات الممكنة بين "الخطاب الغرافيتي Le discours graffitique" و"الفضاء الحضري Le milieu urbain" الذي اِحتضنها، وما أنتجته هذه العلاقة التّفاعلية، خاصةً، فيما سُمِّي بـ "الغرافيتي الحضري Le graffiti urbain"، وعلاقته بـ "الثقافات الحضرية Les cultures urbaines" الخاصة به. وما يميّز هذا الخطاب عن غيره من الخطابات المجاورة. حيث يعتقد الباحثون في الموضوع أنّها (الغرافيتي) اِنتشرت بهذه الطريقة نتيجة الاِختلالات الوظيفية للمؤسّسات الحضرية والمدينية، والتّنشِئَوية، التي أفرزت ظواهر اجتماعية متعدّدة، كالتّهميش والاقصاء الحضري واللامساواة الاجتماعية، عبّرت عنها مجموع سلوكات "القبائل الحضرية Les tribus urbaines" (المُغرفِتُونLes graffiteurs/ des graffeurs)".

10. المقاربة العامة/ الشّعبية L'approche Populaire:

تفطّن بعض الدّارسين لأهمية كُتب السُّخرية والفكاهة التي لها رواج كبير بين أفراد المجتمع، بِاختلاف طبائعهم ونِحَلهم من المَعاش، الاجتماعي والثّقافي، نظرًا لميزتها التّرفيهية والتّنفِسيّة، ما رَشّحها لتكون من أكثر المنتوجات الشّعبيةً تسويقًا، أمام باقي أصناف "الانتاج الثّقافي" المعروض في السّوق الثّقافية. وضعٌ شجّع جامِعِي "التّحَف الغرافيتية" من تكييفها وفق قواعد السّوق، بالاِعتماد على مقاربة عامّة، تنتقي المواد (صورة، كلمة، جملة) على حَسَب رَغبة الباحث والمستهلك في التّسلية والتّفَكُّه.

ولعل أشهر مُرافِعٍ عن هذه المقاربة الباحث الكندي "جون روبرت كولومبوJohn Robert Colombo" خاصة من خلال مؤلفين له نشرهما على التوالي سنتي (1983/1975)[27].

طبيعتها "السّطحية" في التّعامل مع الغرافيتي جعلتها تتعرض لِانتقادات عديدة، إذ يعتبرها بعض الباحثين سوى تجميع للغرافيتيا بكل أنواعها، بهدف تسلية القارئ لا غير، أيّ دون الغَوص في تحليل مغزاها العميق، بِاستجلاء مدلولها السوسيولوجي أو السيكولوجي أو الأنثروبولوجي. كما تخضع في تجميعها لذاتية الباحث في اختيار"الكتابات/الصّور" المسليّة لا أكثر.

ولتقريب الفهم أكثر، نستعرض –بتصرف– المقاربات السّالفة التقديم–ما عدا المقاربة المَدِينيّة/ الحَضَرية– من خلال الجدول التالي، الذي صاغه السوسيولوجي الأمريكي "جين كادسبي Jane M. Gadsby"، ليوضح المقاربة الأكثر اِستثماراً في البحوث (107) عينة دراسته[28].

طبيعة المقاربة	النّسبة المئوية
المقاربة الفلكلورية	%23
المقاربة الثّقافية	%18
المقاربة الكميّة	%13
المقاربة الدّوافع	%12
المقاربة الجندَرية	%11

المقاربة اللّسانـية	**%8**
المقاربة الشّعبـية	**%6**
المقاربة الفنيّة الجمالية	**%6**
المقاربة الوقائـية	**%3**

الجدول 1: نِسبة إستخدام كلّ مقاربة، حسب "Jane M. Gadsby".

يتّضح من خلال الجدول الحضور الواسع للمقاربة الفلكلورية (بنسبة 23%)، وتليها المقاربة الثّقافوية (بنسبة 18%)، ثمّ تَردِفها المقاربة الكميّة، التي لقيت رواجاً خلال سبعينات القرن الماضي، بينما تكاد تَغيب المقاربة الوِقائية، ربّما لِعَدم فعاليتها اتجاه الفاعليين الغرافيتيين.

III. أمام هذا التّنوع في المقاربات، ما المعمول إذاً؟

للخروج من هكذا إشكال، يشير "جين كادسبي Jane M. Gadsby" إلى أنّ أعتَى الباحثين في الموضوع يُقِرُّون بأنّ الدّراسات التي لها أكبر مصداقية علمية، تلك التي تستثمر وتشارك أكثر من مقاربة منهجية. حيث عمدت معظم الدّراسات (خاصّة الأمريكية والكندية) منها، لِاستمار أكثر من مقاربة منهجية، لتفكيك أواليّات اشتغال الظاهرة. فعلى سبيل المثال، مازجت دراسة الباحثة "دايفيس كاثرين Davies Catherine"، بين مقاربات عدّة، بين النّوعية/ الجندرية والكميّة ومقاربة الدّوافع.

بدورها اِنتقدت الباحثة "موارا سميث Moira Smith" المقاربات المعتمدة في جُلّ الدّراسات التي قاربت الموضوع، ذلك لأنّ أغلبها ينحو إمّا التّركيز على البعد المادي (الوسائط والحاملات)، وإمّا الانشغال فقط بـ "النّصوص الغرافيتية" بشكل اِنتقائي. هذا ما غيّب أبعاد أخرى، لذا من الأصوب الاهتمام بتفاعل هذه الأبعاد كلّها، في ما تسميه بـ"المقاربة السوسيولسانية L'approche sociolinguistique" أين يتمّ الانشغال بالسّياقات النّصية/ الصّورية، الوسائطية، والثّقافية المميّزة للفعل الغرافيتي، ومنه لـ"لفاعل المُغَرفِت L'acteur Graffeur". ولقد اِقتنع الدّارسون بفعالية هذه المقاربة، حيث نُشِرَت مجموعة من المقالات المستعرضَة لدارسات اِعتمدتها، على نحو، "كاثرين دافيس Catherine Davies" 1985، "آرس دارميلر Urs Dürmüller" 1988، "بيرش مونوومن Birch Moonwomon" 1992 .[29]

في الأخير، نرجو أنّنا تمكنّا من توضيح أهم المقاربات المستخدمة في تفهم الظاهرة الغرافيتية، علّها تُيَسِّر العمل على كلّ باحث يَهُمّ بدراستها بمجتمعنا الجزائري، رغم اِدراكنا أنّ هكذا عملية تبقى مسألة خلافية وجدالية، ومتعدّدة الأبعاد والمرجعيات النظرية والابستمولوجية.

الإحالات والهوامش:

1. يَتَموقَع مقالنا التّالي ضمن رغبة منّا، كنّا قد أعلنا عليها في مقالاتنا السابقة، (الوظيفة الأخرى للطاولة التّعليمية: مقاربة سوسيولوجية لظاهرة الكتابات الغرافيتية)، (ملامح الممارسة الغرافيتية بالمجتمع الجزائري: محاولة تأريخية)، المستوحاة من أطروحتنا للدكتوراه الموسومة بـ"هوية الطالب الجامعي الجزائري من خلال الكتابات الغرافيتية". اجتهادات نَرُوم من خلالها اِستوضاح واِستثارة البحث حول ظاهرة الغرافيتي Les graffiti(s) بمجتمعنا، ظاهرةٌ، مازالت "غائبة، مُغيَّبة، مهمّشة على مستوى الإنهجاس البحثي.
2. Scheibel, Dean, "**Graffiti and film school culture: Displaying alienation**", Communication Monographs, 61,1994, pp. 1-19.
3. Romain Sahut, **Mémoire d'expression: Les graffiti et l'art urbain**, IUTBM, 2002-2003 p3.
4. Ex: Les dérivés graffitique (adj.), graffitiste (adj.), graffiteur, se (subst.),..sont des néologismes récents appartenant à la langue spécialisée.
5. Pierres Philosophales, "**Photo graffiti(es) d'Expressions Murales**", Collectif des 12 Singes, 2010, 150p. In: http://photograffeurs.over-blog.net,eBook .Consulté le : 13/9/11.
6. Romain Sahut, op.cit.p.4.
7. Jane M. Gadsby,"**Looking at the writing on the wall: A critical review and taxonomy of graffiti texts**", 1995. In: http://www.graffiti.org/faq/critical.review.html. Consulted:4/7/10.
8. Jean Bushnell," **Moscow Graffiti,Language and Subculture**", Boston,1990.
9. Cesaretti, Gusmano, "**Street writers: A guided tour of chicano graffiti**", Los Angeles, CA, Acrobat Books,1975.

10. نُحِتَ المصطلح من طرف الأنثروبولوجي الأمريكي "ألاندنديزAlan Dundes " لِتوصِيف نوع من أنواع الغرافيتيا الخاصّة بالمراحيض، أَجْرَأَهُ باسم (Latrinalia) . وذلك في سياق دراسته حول غرافيتيا المراحيض، والموسومة بـ"Here I sit : A study of American Latrinalia"،ليتوسع إستثماره على يد العديد من الدارسين على نحو الباحث البرازيلي "بلازا راناتا تكسيراPlaza Ranata Teixeira" الذي قارَب الظّاهرة من خلال مقارنته بين العديد من "الكتابات الغرافيتية" التي جمعها من مجتمعات شَتَّى.

11. Arnold Arluke & Lanny Kutakoff& Jack Levin, "**Are the times changing?, An analysis of gender differences in sexual graffiti, sex roles**", vol 16, nº 1-2, 1987, pp. 1-7.
12. Bruner, Edward M. & Jane Paige Kelso, "**Gender differences in graffiti: A semioticperspective**", Women's Studies International Quarterly, nº 3,1980, pp.239-252.
13. Ange, Leandri, « **Graffiti et Société** », France, 1983, 622 p.
14. Emma Otta& Paulo Reinhardt Santana, "**Musa Latrinalis: Gender differences in restroom graffiti**", Psychological Reports, Institute of Psychology, University of Sao Paulo,1996,pp.78,87. In:http://www.ip.usp.br/portal/images/stories/Articles/1996OttaLafrayaHoshinoTeixeiraVallochiSantanamusalatrinalis.pdf.Consulted:17/07/2011.
15. Pierre Bertoncini,"**Graffiti et littoral: Les Signes de la littoralisation du territoire Corse**", Actes du colloque international pluridisciplinaire", **Le littoral: subir, dire, agir**", Lille, France, 16-18 janvier 2008.
16. David Ley; Roman Cybriwsky,"**Urban graffiti as territorial markers"**, Annals of the Association of American Geographers, vol. 64, nº.4. (Dec.1974), pp. 491-505. URL:http://links.jstor.org/sici?sici=0004-5608%28197412%2964%3A4%3C491%3AUGATM%3E2.0.CO%3B2-H, Consulted:12/1/2009.
17. Grider, Sylvia Ann. "Con Safos: **Mexican-Americans, names and graffiti,"** published in Journal of American Folklore, Vol. 88, pp.132-142, 1975.URL: http://www.graffiti.Org/faq/graffitibiblio.html Consulted: 14/2/2010.
18. Allen Read Walker, "**Classic American graffiti: Lexical evidence from folk epigraphy in western north america: A glossarial study of the low element in the English vocabulary",** publisher: Maledicta (Waukesha, Wis.USA),1977,83p. In: http://www.getcited.org/pub/101667479. Consulted: 12/05/2010.
19. Michael Martin, John A. Bates,"**The thematic content of graffiti as a nonreactive indicator of male and female attitudes"**, Journal of Sex Research,vol16, 1980, pp.300315. In: http://www.Informaworld.com/smpp/content~db=all~content=a918465630~frm=titlelink. Consulted: 10/2/2008.

20. رغم أنّ العديد من الآراء تميّز بين الفن التقليدي الرّسمي و الغرافيتيا بإعتبارها ممارسة غير رسمية وغير "راقيّة".

21. Varnedoe, Kirk and Adam Gopnik, "**High and Low: Modern art, popular culture", ** New York: Museum of Modern Art, 1991.
22. George C. Stowers**,**" **Graffiti art: An essay concerning the recognition of some forms of graffiti as art**", 1997. In: http://www.graffiti.org/faq/stowers.html .Consulted:20/10/2009.
23. Abel, E & Buckley, B. "**The handwriting on the wall: Toward a sociology and psychology of graffiti",** Westport, Greenwood Press,1977 ,156 p.
24. Regina, Blume**,"Graffiti: Discourse and literature".** Ed, T. A. Van Dijk, vol: 3, Critical Theory, Amsterdam/ Philadelphia: John Benjamins Publishing Company, 1985. pp. 137-148.
25. Frank Coffield, "**Vandalism& graffiti: The state of the art",** Publisher: Calouste Gulbenkian Foundation (London), 1991, 128 p.

26. خلاصة هذه النظرية أنّ السلوك الإجرامي نتيجة حتمية للفوضى التي تترك تتشكل وتتراكم من إرهاصات السلوكيات "الصغيرة"، فعندما تُكسر نافذة ما ولا يتمّ اصلاحها أو تغييرها مباشرة، يظن المحيطون أنّ أحدًا لا يهتم بالأمر، وسرعان ما تكسر نوافذ أخرى، وتنشر الفوضى من المبنى، ومنه إلى الشارع الذى يقابله، وهكذا دواليك، حتىّ تَعمَّ الفوضى، مع إرسال رسالة بأنّ كل شيء مباح.

27. John Robert Colombo, " **Colombo's little book of canadian proverbs, graffiti, Limericks and other vital matters",** compiled by; Peter Whalley & David J. Shaw, Hurtig Pub, 1975, 143 p.
28. Jane M. Gadsby , op, cit.
29. Ibid.